طفل الثلاثينيات الرهيب

كان من الآثار السيئة لما كتب فى لغتنا عن الشاعر ت . إس . إليوت أننا كدنا نقتنع بأنه مرادف للشعر الإنجليزى الحديث ، وأنْ لاثانى له ، وتلك مغالطة ماكان إليوت نفسه ليرضى عنها .. حقًّا ، لقد رد للشعر الإنجليزى عظمته فى القرن العشرين ، لكنه كان فاتحة لعدد نابغ من الشعراء ظل هو بالنسبة لهم معلم طريقة فحسب : فقد أخذوا عنه فن الأداء وتأثروا به ، لكنهم استقلوا عنه تماماً ، بل إنهم داروا فى فلك غير فلكه : فقد كانت عيناه تتجهان إلى الماضى وثقافته ، وكانت عيونهم تتطلع إلى المستقبل ، وتحاول التنقيب فى ظاهر الأشياء والنفاذ إلى مكنوناتها بغية فهم العالم الذى يعيشون فيه وتغييره .

وقد ظهر هؤلاء الشعراء فى فترة مابين الحربين ابتداء من عام ١٩٣٠ أى بعد أقل من عشر سنوات على ظهور أرض إليوت الخراب . غير أن ثلاثة منهم على وجه التخصيص حملوا لواء مدرسة تجديد شاملة لاتزال آثارها تتردد إلى اليوم لافى الشعر الإنجليزى فحسب ، ولكن فى الشعر الأمريكى أيضاً ، وهى مدرسة «الشعر الحديث» التى ارتبطت بالسياسة والمجتمع ذلك الارتباط الذى وازن بين ردة إليوت واستغراقه فى الماضى وبين متطلبات فترة مابين الحربين والأزمة الاقتصادية التى شهدها العالم عام ١٩٢٩ .

وكان هذا الثالوث الموهوب هو ستيفين سبندر (ولد عام ١٩٠٩) ، وسيسيل داى لويس (ولد عام ١٩٠٤) ، ووستان هيو أودن الذى اختصر اسمه بالحروف كإليوت . وكان يشاركهم إلى حد ما شاعر رابع افترق عنهم بعد ذلك ، ولجأ إلى مايشبه التصوف ، وهو لويس ماكنيس الذى توفى عام ١٩٦٤ .

غير أن أودن كان أغزر هذا الثالوث إنتاجاً وأكثره تأثيرً على غيره من الشعراء وبخاصة جيل مابعد الحرب ، بل إنه كان – كما يقول كينيث ألوت – أعظم عقل خلاق وأعظم قوة شعرية من ناحية الأصالة فى الحركة الجديدة التى نشأت إبان الثلاثينيات . وقد بدأت هذه الحركة – أو المدرسة كما تواضع على تسميتها سبندر فيما بعد – بانقلاب على الذوق السائد وماتفشى فيه من ميوعة وتشاؤم وحيرة بين الدين والواقع المحزن ، وكانت فى أساسها حركة اجتماعية قامت على عدة أسس نجملها فى أربعة :

* رفض الخط الميتافيزيقى الذى سار عليه إليوت .
* الارتباط بالمجتمع وضرورة فهم الواقع السائد من أجل تغييره .
* محاربة الروح الفردية وتأكيد الروح الجماعية .
* إنشاء شعر جديد يناسبُ العالمَ الجديد الذى يجب أن يقوم على أنقاض العالم القديم عن طريقة الثورة الاجتماعية . ومن ثمة يجب على الشاعر الرجوع إلى الشعب واستلهام حياته والاستفادة من لغة الحياة اليومية .

وقد لخص سبندر هذا كله فى كتابه «الشعر منذ عام ١٩٣٣» – فقال :

«كانت هناك جماعة من الشعراء حققت صيتاً واسعاً جدًّا كمدرسة للشعر الحديث ، ولم تكن حركة أدبية بالمعنى المتداول للكلمة .. (لكن) كانت لديها أفكار معينة مشتركة : فقد حاول أفرادها بوعى أن يكونوا عصريين ، وذلك بأن ينتقوا فى قصائدهم صوراً مختارة من الآلات والأحياء الشعبية والظروف الإجتماعية التى كانت تحيط بهم ، لقد كان شعرهم يؤكد روح الجماعة ، وينشد – وقد سيطر عليه الإحساس بالمرض الجماعى – دواء جماعيًّا فى علم النفس والسياسة اليسارية .. إن شعرهم يعبر بدرجة كبيرة برغم يساريته عن مشكلة الليبرالى الموزع بين نموه كفرد وضميره الاجتماعى» .

لقد تلفت أودن حوله قبل أن يصدر ديوانه الأول بعامين فإذا به أمام كارثة توشك أن تدمر العالم : فقد بدأ الكساد الكبير فى أمريكا عام ١٩٢٩ ، ونظر أودن فلم يجد سوى :

مداخن بلا دخان وجسور محطمة
وأرصفة موانٍ متآكلة
وقنوات مختنقة .

ومعنى هذا أن العمل والثورة ضرورتان ، فالجوع كما يقول فى قصيدة أخرى لايسمح بأية فرصة للاختيار ، لا للمواطن ولا لرجال الشرطة .. والحل ؟ لقد بحث أودن كثيراً عن هذا الحل ، لكنه لم يجد فى النهاية سوى الحب كحل للأكذوبتين اللتين يراهما فى عصره وبلده :

أكذوبة الرومانسية فى مخ
الرجل الحساس فى الشارع
وأكذوبة السلطة
التى تناطح أبنيتها السحاب !

ثم لخص هو بنفسه الحل فى بيت واحد من الشعر قال فيه :

إما أن يحب كل منا الآخر أو نموت !

* * *

ولد أودن فى يورك عام ١٩٠٧ وأكمل تعليمه بأكسفورد ، ثم غادر إنجلترا إلى برلين حيث التقى هو ولايار عالم النفس والاجتماع الذى أطعم رأسه المتفتح مذاهب جديدة كما يقول . ولما عاد من ألمانيا عمل بالتدريس فى إنجلترا وأسكتلندا ، ثم تركه إلى العمل بالأفلام التسجيلية معلقاً ينظم الشعر ليناسب اللقطات . وحين نشبت الحرب الأهلية الإسبانية عام ١٩٣٦ أسرع أودن إلى هناك ، حيث عمل ممرضاً وحمّالاً للنقالات فى صفوف الجمهوريين . وقد تركت هذه الحرب فى نفسه آثاراً بالغة أقلها أنها محت الابتسامة الرقيقة التى كان يحلى بها شفتيه ، وجعلته يؤمن بأن الظلم والطغيان لايختص بهما مكان أو زمان دون آخر .

ومن هنا أطلق عليه لقب «بايرون عصرنا» .

وفى عام ١٩٣٧ منح الميدالية الملكية للشعر ، وقضى فترة ساح خلالها فى كثير من دول أوربا ، لكنه لم يلبث فى خريف ١٩٣٨ أن شد رحاله نهائيًّا إلى أمريكا حيث أقام وتجنس بجنسيتها وانخرط فى الجيش الأمريكى فى أثناء الحرب الثانية ، وفى عام ١٩٤٥ منح جائزة الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب . وتفرغ للكتابة منذ ذلك الحين . وجعل النقادُ ومؤرخو الأدب الإنجليز والأمريكيون يتنازعون عليه كما تنازعوا من قبل على إليوت الأمريكى المولد والنشأة وذلك بأن ينسبوه تارة للشعر الإنجليزى وتارة أخرى ينسبوه للشعر الأمريكى .

وأودن من الشعراء القلائل فى هذا القرن الذين تحكموا فى غزارة إنتاجهم ، ووازنوا بينه كمًّا وكيفاً ، فله أكثر من عشرة دواوين ، أولها «قصائد» الذى صدر عام ١٩٣٠ وآخرها «شكراً أيها الضباب» الذى صدر عام ١٩٧٤ بالإضافة إلى كتاب فى الرحلات وعدد من المسرحيات الشعرية شاركه فى ثلاثة منها كريستوفر إيشروود كما شاركه فى أحد دواوينه الباكرة لويس ماكنيس .

وقد حظى أودن بمكانة كبيرة فى الشعر العالمى المعاصر : فهو «أذكى شاعر فى جيله» كما قال عنه زميله سبندر ، وشعره رقيق رشيق العبارة لايعرف الغموض والحذلقة ، يميل إلى التركيز الشديد وبلورة الصور . وقد تركت معايشته لأفكار فرويد ونظرياته طابعاً واضحاً على شعره يتسم بمحاولته الدائبة فى الغوص إلى قرار تجاربه وأشخاصه ، والاعتماد على الأحلام كمصدر من مصادر المعرفة اللاشعورية ، وله قصيدة طويلة فى ذكرى فرويد قال عنه فيها :

«لم يَعُدْ بالنسبة لنا الآن شخصاً على قيد الحياة
ولكنه صار مناخاً كاملاً من الآراء
ندير فى ظله حياتنا على اختلافها».

وفى شعره أيضاً إلحاح مستمر على أفكار بعينها أهمها فكرتا الزمن والحب اللتان تتردد أصداؤهما فى كل قصيدة تقريباً : فالزمن ليس آلة بمقدار ماهو كيان بأكمله ، لا مفر منه ولاغناء عنه ، كالحب تماماً.

لكن هل ظل أودن متحمساً للسياسة كما كان فى الثلاثينيات ؟ الثابت أن زميليه سبندرولويس قد ارتدّا عن حماسهما وتنكرا تماماً لأفكارهما اليسارية ، أما هو فقد أقام فى أمريكا نحو ثلاثين عاماً ، فاز خلالها بجائزة بوليتزر فى الشعر ، وكانت هذه أول مرة تمنح فيها الجائزة لشاعر أمريكى مولود خارج أمريكا ، ولكنه عاد إلى أوربا فى أواخر الستينيات ، وعاش فى النمسا إلى أن أسلم الروح فيها فى التاسع والعشرين من سبتمبر ١٩٧٣ . وطوال ذلك التاريخ لم يكن يقبل أن يرى نفسه كشاعر سياسى ، بل كان يكره جميع الأنظمة الشمولية التى تحتكر السلطة سواء فى السياسة أو فى الشعر ، ولكنه كان فى شعره دائماً مثال الناقد الاجتماعى ؛ وما أكثر مانلتقى فى هذا الشعر وأبياتٌ مثل هذا البيت الذى أشار فيه إلى إنجلترا :

بلدنا ذاك
الذى ليس فيه أحد على مايرام !

وما أكثر مانلتقى فى هذا الشعر أيضا وصور وإشارات ومعان عن العدل الإجتماعى ؛ لأنه كان يعتقد أن الشعر أساس لما أسماه «المدينة العادلة» قياساً على «المدينة الفاضلة» ، وعن طريقه يستطيع الإنسان والمجتمع أن يعرفا حقيقتهما .

لقد قال إليوت فى أواسط عمره عبارة مشهورة صارت مثلاً هى : «أنا ملكى فى السياسة ، أنجلوسكسونى فى الدين ، كلاسيكى فى الأدب» ومع أن هذه العبارة لم يكن لها أدنى تأثير على موهبته الشعرية والذوقية فإنها دمغته طوال حياته .

أما ييتس الآيرلندى فقد مر بتحول جذرى من الرومانتيكية إلى الواقعية ، ومع ذلك قال عنه أودن وكأنه يكتب نقشاً على حياته هو نفسه : «لقد كنت ساذجاً مثلنا فقد عاشت موهبتك كل شىء» فأودن أيضاً يعتبر مثالاً للموهبة الكبيرة التى تكتسح كل شىء فى طريقها !

وإذا كان أودن قد بدأ حياته شاعراً متمرداً من كل الوجوه فقد أنهاها شاعراً هادئاً رقيقاً ، وأبرز مثال على ذلك ديوانه قبل الأخير المسمى «عن البيت» (١٩٦٦) ففيه بداية التغير الحقيقى

من التمرد إلى الهدوء ، ومن الانفتاح إلى العزلة ، ومن إثارة الأفعال إلى إثارة ردودها . وفيه أيضاً نلاقى معرضاً حافلاً للأشياء الخصوصية والمحادثات مع ذواته المتعددة . »ولم لا ؟ هل يتوقع الناس أزهار الربيع ووروده فى الخريف كما قال الشاعر الناقد موريس ويجين فى تعليقه على تحول أودن ؟ فحياة البيت تأتى عادة فى الهزيع الأخير من العمر ، وليس من الغرابة أن يحتفى أودن ببيته وأفدنته الثلاثة حيث عاش فى النمسا ، وليس من الغرابة أيضاً أن تكون كل غرفة فى البيت موضوعاً لقصيدة جميلة كهذه الأبيات من قصيدة «الشكر للموطن» :

. . . . . الأرض والمنزلة والحب
هذا ماتتغنى به جميع الطيور ، وهذا مايهم :
فماجزوت عليه ، لامارجوته أو كافحت من أجله
هو فى عقدى الخامس قطعة من الأرض يتوسطها بيت صغير
حيث لا حاجة بى لأن أقيم مع من لست معهم .
إنه ليس مهد طفل أو جنة عدن سحرية لاتعرف الساعات
وليس مقبرة لاتعرف النوافذ ،
وإنما هو مكان أدخله وأخرج منه .

وفى أبيات أخرى من قصيدة «غرفة الجلوس» يقول وكأنما صح إيمانه بعد رحلة شك طويلة :

سواء كنا نصوم أو نعيد
فإنا نعرف أنه بدون الروح
نموت ، ولكنما الحياة بدون الحرف
تصبح فى أسوأ مذاق .

ذلك ماانتهى إليه أودن فى سنواته الأخيرة : هدوء شامل وهيام مستمر بالعدالة والحرية والكلمة والحب ، بل إنه عاد أيضاً إلى الكنيسة التى كان قد هجرها بعد عودته إلى أوربا .

وإذا كان فى شبابه قد بدا شاعراً متحمساً يستطيع أن يوقظ قراءه ويثيرهم ويخيب آمالهم ويغيظهم بشعره وتمكنه المثير من اللغة — فهو فى شيخوخته قد بدا شاعراً هادئ الجرس ساكن المغامرة ، ويبدو أن هذه حال معظم الشعراء حين يبدأ العد (التنازلى) فى حياتهم فهم : إما أن يكرروا أنفسهم وسابق أفكارهم ، وإما أن يخلدوا إلى الهدوء والسكينة .

* * *

ذات مرة كتب عنه زميله إيشروود الذى شاركه فى تأليف عدة مسرحيات شعرية قال :

« إذا كان علىّ أن أقدم للقارئ شعر و . هـ . أودن فيجب أن أبدأ بمطالبة القارئ بتذكر ثلاثة أمور : أولها أن أودن أساساً – عالم ، وربما أضيف : (عالم من تلامذة المدارس) ، وثانيها أن أودن موسيقى وصاحب طقوس وشعائر ، وثالثها أن أودن سكندنافى قد انحدرت أسرته من أيسلندا .

وأودن نفسه شب على ملاحم البطولات القديمة التى اشتهرت بها أيسلندا ، وكان أثرها فى إنتاجه عميقاً » .

وربما نضيف إلى ما قاله إيشروود أن أودن كان أيضاً شاعراً ، أولاً وأخيراً ، جربَّ مختلف أشكال الشعر فيماعدا الشكل الحر الذى يقول عنه فى أواخر حياته :

« لم يكن لى على الإطلاق أى تعلق بكتابة مايسمى الشعر الحر ، لأنى لا أعتقد أننى سأجد فيه أية متعة . وعندى أن نصف المتعة التى تتيحها الكتابة يجعل ما أكتبه يطابق قواعد وقيود تحكمية محضة . فلم أعد أستطيع أن أتصور كوناً بلا قوانين وقيود ، أو لعبة بلا قواعد ! »

سئل يوماً وقد تجاوز الستين :

ماهدف الشعر ؟

قال :

– أن يمكِّن الناسَ من الاستمتاع بالحياة .. بطريقة أفضل بعض الشىء ، أو من تحملها بطريقة أفضل بعض الشىء .

سئل أيضاً :

من الشاعرُ القليل الأهمية ؟

قال :

– إذا أخذت قصيدتين لشاعر واحد وقرأتهما فلم تستطع تمييز التى كتبت أولاً قبل الأخرى فذلك هو الشاعر القليل الأهمية .

ذلك هو طفل الثلاثينيات الرهيب الذى قال عنه معاصره سيريل كونوللى عام ١٩٦٦ : « كان أودن بالنسبة لكثيرين منا آخر شاعر حفظنا شعره عن ظهر قلب » .

أما المختارات الشعرية التى سنطالعها له الآن فقد انتقيتها من دواوينه الأولى يوم كان « يجلب الصور التى تجرح وتضمد » على حد تعبيره عن مهمة الشاعر .

الجمال الفضى

هذا الجمال الفضى
لا تاريخ له ،
إنه كامل ومبكر .
لو أن الجمال حمل فيما بعد
أى ملمح
لكان له عاشق .
ولأصبح شيئاً آخر .

* * *

ما أشبه هذا بالحلم
يلح مرة أخرى ،
ثم يطويه النهار .
فالزمن عبارة عن بوصات
والقلب يتبدل ضائعاً ومطارداً ،
كأنما قد زاره الشبح !

* * *

لكن هذا لم يكن قط
محاولة لشبح
ولا كان بعد أن تم
شبحاً مستريحاً
وإلى أن ينتهى
لن يقترب الحب
من العذوبة التى هنا ولا الأسى سيسلب
طلعته اللانهائية .

حلم :

عزيزتى ، مع أن الليلة قد ولت

فإن حلمها مازال يعاودنى بالنهار ،
حلم جاء بنا إلى غرفة كهفية قصية ،
كآخر محطة فى الخط الحديدى ،
وكانت تلك العتمة تعج
بالأسرة ، حيث رقدنا فى واحد منها احتوته زاوية بعيدة .

* * *

لم يوقظ همسنا الساعات ،
وتبادلنا القبلات ، وكنت سعيداً
بكل ماصنعته أنت ،
غير مكترث بأولئك
الذين كانوا يجلسون
أزواجاً على كل سرير ، والعداء يتطاير من عيونهم ،
وذراعا كل منهم تحيطان بعنق الآخر ،
وقد تجمدوا وران عليهم الحزن المبهم .

* * *

ماالذى دفن دودة الإثم .
أو أى شك خبيث ،
أنا ضحيته ،
جعلك عندئذ تفعلين دون خجل مالم أتمنّه قط ،
فتعترفين بحب آخر ،
فأحسست ، مذعناً
بأننى غير مرغوب وخرجت ؟

أمسية

بينما كنت أسير ذات مساء ،
متجهاً إلى شارع بريستول ،
إذا بالجماهير على الأرصفة

حقول حنطة فى موسم الحصاد
وعند النهر الممتلئ إلى حافته
سمعت عاشقاً يغنى .
أسفل نفق للخط الحديدى :
الحب ليست له نهاية
سأحبك ، ياعزيزتى ، سأحبك
حتى تلتقى الصين وأفريقيا !
ويقفز النهر فوق الجبل !
ويغنى سمك السلمون فى الشارع !
سأحبك حتى يطوى المحيط !
ويعلق كى يجف !
وتمضى الأنجم السبعة صائحة
كالإوز نحو السماء !
ستجرى السنون كالأرانب ،
لأنى أمسك بين أحضانى
بزهرة العصور ،
وأول حب على وجه الأرض .
لكن جميع الساعات فى المدينة
بدأت تدق :
«إياك أن تدع الزمن يخدعك !
فأنت لاتستطيع أن تغزو الزمن .
فى جحور الكابوس
حيث العدالة عارية ،
تجد الزمن يراقب من وراء الظل
ويسعل إذا شرعت فى قبلة
فى حالات الصداع والقلق
تتسرب الحياة المبهمة ،

ويملك الزمن هواه
اليومَ أو غداً
فى كثير من خضر الأودية
ينجرف الثلج الفزع
ويقطع الزمن الرقصات المنظومة
وقوس الغواص البارعة
اغمسى يديك فى الماء
اغمسيهما حتى المعصم
حدق ، حدق فى الحوض
وتساءلى عما افتقدته .
«إن نهر الجليد يخبط داخل الخزانة ،
والصحراء تتنهد فى السرير ،
ويفتح الشرخ الذى فى (فنجان) الشاى
زقاقاً يؤدى إلى أرض الموتى .
حيث يبيع الشحاذون أوراق البنكنوت باليانصيب
ويبهر العملاق جاك
ويزرأ صبى الزنبق الأبيض
وتنبطح « جيل » على ظهرها
أنظرى إلى تعسك
فالحياة تظل نعمة وبركة
مع أنك لا تستطيعين أن تباركى
قفى ، قفى فى النافذة
فحين تسخن الدموع وتنساب ،
ستحبين جارك الملتوى
بقلبك الملتوى»
كان الوقت متأخراً ، متأخراً فى المساء
وقد ولى العشاق ،

ونوقفت الساعات عن الدق ،
وأخذ النهر العميق يجرى !

زيارة الأسطول

ينزل البحارة إلى الشاطئ
من سفنهم المجوفة ،
أولاد من الطبقة المتوسطة على وجوههم سماحة
يطالعون المسلسلات الهزلية المصورة ،
ومباراة فى الباسبول تفوق
لديهم خمسين طروادة .

* * *

إنهم يبدون ضائعين بعض الشىء ، ألقى بهم
فى هذا المكان غير الأمريكى
حيث الأهالى يسيرون على القوانين .
ومستقبلهم بأيديهم ،
أما هم فليسوا هنا لأى سبب ،
سوى أن الحالة تقتضى هذا .

* * *

إن العاهرات والنصابين
الذين يضايقونهم بالتوافه والمخدرات ،
بوسائلهم المقززة القذرة .
إنما يخدمون الوحش الاجتماعى على الأقل .
هم لايصنعون ولا يبيعون
فلا عجب أن يسكروا .

* * *

لكن سفنهم الراسية على الزرقة الأخاذة
فى هذا الميناء تحقق كسباً من عدم وجود مهمة لها .

وبدون إرادة إنسانية تعين لهم الضحايا
فإن بنيتهم تحتفظ بإنسانيتها .
وبغض النظر عما يبدو عليهم من ضياع ،
فإنهم يبدون كما لو كان قد حكم عليهم
بأن يظهروا بمظهر تجريدى صرف ،
صاغه أستاذ من أساتذة القوالب والخطوط
يساوى ، لاشك ، كل سنت
من ملايين السنتات التى لابد أنفقت عليهم .

أغنيتان لهدلى أندرسن

—١—

أوقفى كل الساعات ، قطعى أسلاك التليفون ،
إمنعى الكلب عن النباح بعظمة ثرّة ،
أسكتى آلات البيانو وأخرجى النعش
بطبل مختنق ، خلِّى المشيعين يأتون

* * *

خلى الطائرات بالأنين تدور فوق رأسه
وهى تخط على صفحة السماء حروف البرقية : مات ،
ضعى الفيونكات الحريرية حول الأعناق البيضاء
لحمامات الأبراج العمومية .
وألبسى شرطة المرور قفازات قطنية سوداء .

* * *

لقد كان شمالى وجنوبى وشرقى وغربى ،
كان أسبوع شغلى وراحتى يوم الأحد ،
كان ظهرى ومنتصف ليلى وثرثرتى وأغنيتى ،
كنت أحسب الحب يدوم إلى الأبد : كنت على خطأ !

* * *

لا داعى للنجوم الآن : أطفئيها .
المى القمَر وأفرغى الشمس
انزحى المحيط واكنسى الغابة ،
فلا قيمة لأى شىء الآن !

—٢—

أيها الوادى فى الصيف إذ كنت وحبيبى جون
نمشى الهوينى على جانب النهر العميق
والأزهار عند أقدامنا والأطيار من فوقنا .
كنا نبرهن بعذب الحديث على الحب المتبادل ،
وكنت أميل على كتفه وأقول : «لنلهو يا حبيبى جون» :
ولكنه قطب جبينه كالرعد ومضى !

* * *

فى يوم الجمعة ذاك قبيل عيد الميلاد إذْ أذكره جيداً
حين ذهبنا إلى «مرقص ضحوة الإحسان» ،
كانت الأرض غاية فى النعومة ، وكان صوت الفرقة الموسيقية صداحاً
وكان (جونى) غاية فى الوسامة حتى إننى أحسست بالزهو به .
«احتضنى جيداً ياعزيزى (جونى) فلنرقص حتى مطلع النهار !
ولكنه قطب جبينه كالرعد ومضى !
أترانى سأنسى أبداً ماحدث بدار «الأوبرا العظيمة»
لما أخذت كل نجمة رائعة من نجومها تصب الموسيقى صبًّا .
وقد تدلت الماسات واللآلئ تبهر البصر .
على ثوب كل منهن الفضى أو الذهبى ،
وهمست قائلة : «لكأنى فى السماء يا جون» :
لكنه قطب جبينه كالرعد ومضى ؟
أواه ! لكنه كان جميلاً جمال الحديقة فى ثوب الزهور ،
نحيلاً وفارعاً كبرج إيفل العظيم ،

حين أخذت خفقات الفالس تذوى على طريق النزهة الطويل
أواه ! اتجهت عيناه وبسمته إلى قلبى مباشرة ،
«أواه ! تزوجنى يا (جونى) فسألقاك بالحب والطاعة » :
لكنه قطب جبينه كالرعد ومضى !
أواه ! فى الليلة الماضية حلمت بك ، يا (جونى) ، يا حبيبى ،
وقد وضعت الشمس على ذراع والقمر على الذراع الأخرى .
كان البحر أزرق والعشب أخضر .
وكلُّ نجمة فى السماء ، تشخلل دفأً مستديراً .
وأنا أرقد فى جحر هناك مداه عشرة آلاف ميل عمقاً !
ولكنك قطبت جبينك كالرعد ومضيت !

العاصمة :

حى الملذات حيث الأثرياء دوماً ينتظرون .
ينتظرون بغالى الثمن حدوث معجزات .
والمطعم الخافت الأضواء حيث العشاق يأكل كل منهم الآخر !
والمقهى الذى أسس فيه المنفيون قرية خبيثة .

* * *

أنت بسحرك وأجهزتك قد أبطلت
صرامة الشتاء وإكراه الربيع ،
وبعيداً عن أضوائك الأب المغتصب الذى يستحق العقاب
فبلادة الطاعة المجردة هنا واضحة .

* * *

وهكذا سرعان ما تخونيننا بألوان الأوركسترا والنظرات الخاطفة
وتؤمنين بقوانا اللانهائية
ويسقط المذنب البرئ غير الحريص
ضحية فى لحظة لما فى قلبه من مظاهر العنف الخفيفة !
وفى شوارع مظلمة تخفين الفزع .

في المصانع حيث تعد حياة الإنسان لاستعمال مؤقت ،
كالياقات أو المقاعد ، أو الحجرات حيث يضرب الثكالى تدريجاً .
كالفقاعات إذْ تتخذ أشكالا كيفما اتفق
أما السماء فتضيئينها ، وعلى البعد يرى وهجك
في الريف المظلم الواسع ، المتجمد ،
حيث تشيرين إلى أطفال الفلاح ليلة إثر ليلة ،
وتلمحين إلى الممنوع كعم ملعون أحمق .

نقش على قبر طاغية :
كان الكمال الفريد في بابه – هو ما يسعى إليه ،
وكان الشعر الذى ابتكره سهل الفهم .
كان يعرف حماقة البشر كظهر يده ،
وكان مهتماً غاية الاهتمام بالجيوش والأساطيل
وحين كان يضحك ينفجر الشيوخ المحترمون بالضحك[1] .
وحين كان يبكى يموت الأطفال الصغار في الشوارع !

القانون كالحب :
يقول البستانيون : إن القانون هو الشمس
القانون هو الشخص
الذى يطيعه جميع البستانيين
أمس واليوم وغداً .
القانون هو حكمة الشيوخ ،
بهذا ينهر الأجداد العاجزون بصوت أجش ،
فيخرج الحفدة لساناً مثلثا قائلين :
القانون هو حواس الشباب .
ويقول القس بنظرة كهنوتية

(٢٧) يقصد هنا أعضاء مجلس الشيوخ .

شارحاً لأناس لاكهنوت فيهم :
القانون هو الكلمات فى كتابى الكهنوتى
القانون هو منبرى وقبة جرسى .
ويقول القاضى وهو ينظر من تحت أنفه ،
ويتكلم بوضوح وقسوة :
القانون هوكما قلت لكم من قبل ،
القانون هو كما تعرفون فيما أزعم ،
القانون هو ، لكن دعونى أشرحه مرة أخرى
القانون هو القانون !
لكن طلاب القانون الدائمين يكتبون :
القانون ليس هو الخطأ ولا هو الصواب ،
القانون ليس سوى الجرائم
التى تعاقب عليها الأماكن والأزمنة ،
القانون هو الملابس التى يرتديها الناس
فى أى زمان وفى أى مكان ،
القانون هو صباح الخير ومساء الخير .
ويقول آخرون : القانون هو قدرنا ،
وآخرون يقولون : القانون هو دولتنا .
وآخرون يقولون ، وآخرون يقولون :
لم يعد ثمة قانون !
القانون ولىَّ . !
ودوما يصيح الجمهور الغاضب
بصوت شديد السخط ، شديد :
القانون هو نحن !
ودوماً يكون الأبله الساذج : هو أنا .
لو أننا ياعزيزتى عرفنا أننا لا نعرف
عن القانون أكثر مما يعرفون

لو أنني عرفت قدر ما تعرفين
ما يجب علينا وما لا يجب
فيما عدا ما يتفق عليه الجميع
بسعادة أو بشقاء
من أن القانون هو كذا
وأن الجميع يعرفون هذا ،
لو أننا بذلك رأينا من العبث
أن نعرّف القانون ببضع كلمات أخرى ،
فعلى خلاف الكثيرين
لا أستطيع أن أقول مرة أخرى : إن القانون هو كذا
أكثر مما يستطيعون ، فنحن نكبت
الرغبة العالمية فى التخمين
أو نفلت من وضعنا الخاص
إلى حالة اطمئنان ولا مبالاة .
ومع أننى أستطيع على الأقل أن أحبس
غرورك وغرورى ،
كما أحدد بجبن
تماثلا جبانا ،
فإننا على أية حال سنفتخر إذْ
أقول : إنه كالحب
كالحب لا نعرف مكانه أو سببه
كالحب لا نستطيع أن نلزمه أو نفر منه
كالحب كثيرا ما نبكيه .
كالحب نادرا ما نبقيه .

المصادر :

W.H. Auden. *Some Poems. Faber & Faber. London. No Date.*
W.H. Auden. Selected by The Auther. Penguin *London, 1962.*
——About The House Faber London, 1966.
Allot, Kenneth,ed. The Penguin Book Of Contemporary Verse. *London, 1954.*
The Sunday Times Magazine. Nov. 21, 1965.
The Sunday Times. Jan. 30, 1966.
Time Magazine. Oct. 8, 1973.